عالم الفنانة التشكيلية السعودية شادية مرتبط بالتراث الشعبي والحياة اليومية

قليلة هي تلك المعارض التي يتحول مرتادوها إلى جزء منها، إلى أبطال للوحاتها، يخرجون ويدخلون، يقفزون خارج إطاراتها ليستريحوا قليلاً ويتنزهوا، ثم يعودون ليكملوا التكوين ثانية. وأحياناً يحدث شيء آخر حينما ينظر المشاهد للأعمال الفنية التي تقدمها ريشة الفنانة التشكيلية السعودية شادية عالم ومنها ولوحة (مدارج) زيت على قماش ولوحة (جمار) وتعد هاتان اللوحتان غاية في الدقة والجمال والهارمونية. فلماذا يحدث ذلك؟ هل هو الخيال الجامح؟ أم هو التعب والإرهاق؟ هل الخوف والتوق إلى الراحة: راحة الضمير والروح وكل شيء؟!

د. زينب حزام

إن المتأمل للوحات الفنانة الرائعة شادية عالم، وهي فنانة سعودية نشأت في بيئة عربية محافظة بين الخضرة اللامعة تحت وهج الشمس، ففي هذه الأمكنة المنفتحة إذا افترض الإنسان الأرض فإن عيناها تتوهمان وتبحران مسافات تتجاوز حدود البصر بينما يبقى الجسد ملتصقا بصلابة الأرض، بخشونة النهار ونعومة الليل، ويبقى الجسد يستنشق الحياة من لهب التنور وبذور الزيت وهذا ما نجده في لوحتها زيت على قماش التي أسمتها (حميم) لقد فتحت الفنانة التشكيلية السعودية (شادية عالم) عينيها على جمال بريء وشاء لها الله أن تمتلك عيناها جمال وروعة الألوان منذ طفولتها، هذا النور الذي وجد في حسها كفنانة تشكيلية تعبر عن هموم مجتمعها، فضلاً عن ذلك امتلأ قلبها بحب الحكايات الشعبية والأمثال والحكم والقصص الشعبية المأخوذة من التراث ومنها القصص التي تتناقلها ذاكرة الشعوب الجمعية والتي تكون أضافت إليها أو بدلت وغيرت بحسب طبيعة التفكير السائدة والمسيطرة وبحسب الاحتكاك الثقافي والمعرفي الناتج عن تاريخ وجغرافية المكان، حيث قدمت الفنانة التشكيلية السعودية لوحات تبين أن الصبر مفتاح الفرج مثل لوحتها المعبرة (رواح 6) ولوحة (مسد).

إن تحسسها للون وعشقها للتراث الشعبي الذي تستمد منه لوحاتها الفنية جعلها تدرس الفن التشكيلي وتطلع على الأعمال الفنية العالمية ولم تقف إزاءها مبهورة وإنما راحت تتأملها باذلة أقصى جهد لإدراكها والتفاعل معها.. وهكذا بدأت شخصية الفنانة التشكيلية السعودية (شادية عالم) تنمو وتتطور نحو الفن الأصيل، فقد راحت تحاكي الطبيعة والتراث والتاريخ والقيم والعادات والتقاليد الشعبية في مجتمعها المحافظ، فاستخدمت ألواناً صحراوية بأهتة أو داكنة رمادية وكأنها تحاول طرح الطبيعة بكل ما فيها من تفاصيل وحركة لتحور الحياة من خلالها، فالطبيعة هي الحياة.

إن ملامح الشخوص التي جاءت في لوحاتها الفنية مزيج من فن السعودية القديم والفن الإسلامي فاللوحة مسطحة ومقسمة إلى وحدات بينما الوجوه تحاكي الملامح العربية المأخوذة من المجتمع العربي.

عمل جاد للحفاظ على التراث الإسلامي والعادات والتقاليد في المجتمع السعودي

من هنا نجد أن لوحات الفنانة التشكيلية السعودية شادية عالم تتوزع أشكالاً عدة في موقف واحد: الإنسان في مجابهة هموم الحياة اليومية والسعي إلى الأفضل، وهي فنانة تشكيلية تحمل الأمل بتجاوز حالة اليأس، رغم أن غمامة اليأس والحزن والمعاناة تبدو معتمة وتوشك أن تحجب رؤية الأفق.

ومن خلال أعمالها الفنية نستطيع كذلك أن نرى البيئة التقنية التشكيلية.. تبدو الأعمال غير مألوفة فالوجوه لا تصحو على ملامح واضحة، بل هي أقرب إلى الرسم الكاريكاتيري أو التعبيرية الوحشية، أحياناً.. وإن كانت الخطوط تبدو عفوية وبدائية.. كذلك الألوان، لكن بعضها يحمل انطواء طفولياً. اللون الحار الذي يسيل من الخارج كأنه مستخرج تواً من أنبوبة الزيت.

ويبقى السؤال: هل استطاعت الفنانة التشكيلية شادية عالم النجاح في تمثيل الموقف عبر شكل جديد في أعمالها الفنية الجديدة وتناولاتها الفنية السابقة؟

في اعتقادي – وهو اعتقاد قد يلتقي معه أو يتفق معه كل الذين أعجبوا بأعمالها الإبداعية – أنها فنانة مبدعة فعلاً واستطاعت تقديم التراث السعودي الخالد، واستخدامه بشكل معاصر.. وهي فنانة تحمل طاقة فنية هائلة وقيمة جمالية سامية.. لذا نجد أن كل لوحاتها الفنية قادرة على التعبير عن جماليات الألوان والخطوط والأشكال والفراغات لأنها تحمل قيماً جمالية صوتية مسموعة ولأن اللوحة الفنية التشكيلية ترشف بوساطة العين بينما القطعة الفنية الموسيقية ترتشف بوساطة الأذن.

وهكذا لكل فنان ألوانه التي تعتبر وسيلة ارتشافه والتواصل بينه وبين الجمهور.. والفنانة التشكيلية السعودية تتواصل مع جمهورها بالألوان المعبرة عن عادات وتقاليد شعبها.

ويجد المشاهد للوحات الفنانة التشكيلية شادية عالم أنها كثيراً ما تستخدم تعبيرات القسوة والنظرة المتعجرفة لتوضح غرور بعض الناس الذين رسمتهم.. وكثيراً ما اهتمت بالبهجة والبراءة في ألوانها وتفاصيل عن البيئة التي تعيش فيها ورسمت الأحياء الشعبية والعادات والتقاليد في المجتمع السعودي.. كما رسمت الشخصيات المؤثرة في حياتنا الاجتماعية.

الفنانة المغربية إدريسية أويدين في معرضها (ألوان الأرض)

اللون فكرة تشي بطريقة العيش داخل اللوحة، إما ادخاراً يقود إلى المحافظة والتعايش، وإما إنفاقاً يحمل الهتك والإمعان في التخريب، خاصة في العمل الفني الذي يستلهم الطبيعة، مقاربة الأنثى في صيرورتها، مقاربة الجنين واستمرارية الحياة.

في معرض الفنانة المغربية ادريسية أويديدن في رواق محمد الفاسي في مدينة الرباط ثمة ميزتان: لوحات تجد استمراريتها في لوحات قرينات، سواء من ناحية القياس 100/ 100 أم لجهة التواصل اللوني خاصة عند الحافات، وكأنها مهيأة لأن تكون سلسلة، تحاكي دورة الحياة/ الأم: حملاً، ولادة وحياة مع انتباه مضيء إلى تكسير الروتين وإعاقة حضوره، وعليه تبدو اللوحات ذاته شخصية مستقلة، معتدة بنفسها، أو ميالة إلى الحضور الجمعي مع شبيهاتها. العمل الجمعي يتوافق مع عمل الطبيعة، إذ هو بناءٍ، وغالباً ما يكون العمل الفردي تهديماً، فاتخاذ قرار الحرب هو شأن منفرد، ونزق لا تتشارك فيه الجماعة ينسجم مع الروح المستبدة.

والميزة الأخرى هي قطع بعض اللوحات بخطوط أفقية بلون بني غامق، توجه النظر إلى بؤرة تركيز، تجمع في مركزها انتباه المشاهد بشكل أفقي، مشيرة إلى كينونة الخطوط التي هي صميم العمل، لذا تمارس تلقائياً تشتيت المهمش، الذي يحضر بصفة ثانوية مساعدة غير أساسية داخل المساحات المتبقية من الفضاء.

هذه الخطوط موضوعة بشكل حاذق يحمل المأزق والحل في الوقت ذاته ، إذاً، سيجلب أي تصرف غير مدروس الضرر، وربما يفتك بالجمالية، لكن خبرة توزيع الأشكال، متناسبة مع ألوانها، تمنح هذه الأشكال المعترضة فضاء اللوحة إحساساً مرهفاً وشعوراً مؤكداً بعدم مثول العائق. ألوان الطبيعة تتصرف بحقها الكامل في حضور غير منقوص السيادة في إشعاع بهجة الأشجار.

تستعمل الفنانة إدريسية تقنية الورق الصيني الرقيق لعمل عروق أو جذور، أحياناً ورق الرز مع خيوط القش. في بعض لوحات المعرض، تتسيد العروق المساحة كلها، وتتحوّل من نصير مساعد إلى مانع جمالي يعزل النظر في أفق محدود، ما يجعل الخطوط الأفقية تندحر بمهارة وتجعل مساحة العين تقتصر على العروق، بينما الخطوط تلك، هي ميزة عمل الفنانة في معرضها (ألوان التراب).

ينبني اللون أفقياً في غالب اللوحات، محاكياً وقوف الأشجار في الطبيعة، التي لا تزال في استمرارية الوجود، في عين الاهتمام رغم محاولات التدمير وعبث الإنسان بالوجود الأخضر المنتج. البناء اللوني العمودي يوحي بالوقوف، الإرادة واقفة، باسقة التصميم. ثمة عودة إلى اللون الأزرق الذي هجرت معاشرته الفنانة منذ أعمالها المبكرة بتصميم، معاهدة عملها القطيعة معه، لكن، يبدو هذا الرجوع غير إرادي وهو أنثوي. إذ تميل الأنثى إلى العودة إلى عالم الولادة. وإن تخونها المقدرة البيولوجية، العمر وقابلية الرحم استقبال الجنين. تتكرر السلسلة اللونية والأحجام ذاتها في لوحات الأزرق. تبدو الطبيعة ساخنة تفور بدلالاتها، فارضة على المشاهد تقبل ما تجود به، بينما في جل اللوحات، وربما بسبب تعايش اللون البني مع الألوان الأخرى القريبة منه كالأصفر أو البيج، تبدو الطبيعة خافتة، رغبة في إشهار التسامح والتعايش. يشهد اللون تسمية ذات مدلول، الأحمر والدم، الأسود والحزن، وكذلك دلالات سياسية ودينية. مثلاً، لا يفارق اللون الأخضر الداكن في العراق ملابس أعوان البعث، وأصبح في تلك الفترة شتيمة، أو إهانة توجه إلى الشخص عندما تصفه بالمرتدي 'الزيتوني'. لون السجون في الاتحاد السوفييتي السابق هو الزيتوني الغامق، يشيع الإحساس بضيق المكان وانسداد الأمل. إضافة ما للألوان من علامات سياسية، ألوان أعلام الدول، ودلالات دينية كالعمامة السوداء أو البيضاء. الاستعمال المفرط للورق الصيني تقابله شحة حضور الرمل، إذ تنوب الألوان عن حضور الأحجار، تزول الأشياء وتحضر بدلالاتها.

وبغض النظر عن استلهام الطبيعة في المعرض، لا تتوافر قطعية رأي بأن المقصود هو تكريمها متمثلة بالأشجار والجذور من الناحية الكينونية المجردة، إنما احتفاء بها، كوجود دلالة، يمكن الرجوع إليه في استفادة من معانيه، إلى ما يجود به من أمان وحماية. يعوض الفنان المعاصر خسران عواطفه، وفقدان الضروري من وجوده، بلجوئه غير المشروط إلى تسوية إنسانية وفنية، تجعل الجسد معادلاً الطبيعة، باحثاً عن تعويض خسارة. الذي يتحسر عليه، غفلية النقد التشكيلي لهذه الفنانة، فلم تحظ بالضوء الذي هو مرادها في معرضها.

علي البزاز

من أعمال الفنانة التشكيلية تمام عارف الأكحل